مجدّدون !

في ليلةٍ من ليالي رمضان المبارك كنت أُصغي إلى إذاعة القاهرة ، فسمعت في خلال حديثٍ فاتني أوّله صوتاً متهدّجاً يظهر على صاحبه أثر التعب ، فلم يتبيَّن لي صاحب هذا الصوت ، ولكني واظبت على الاستماع ، فاذا بصاحب الحديث يقول : قرأت في جريدةٍ مقالاً جاء فيه أن أدبنا في القديم إنما هو أدب حذلقةٍ ، وأن أدب اليونان إنما هو أدب عفاريت ، وأن أدب أوروبة إنما هو أدب استعمار ، فقال بعد أن قرأ هذا المقال : ما هو الأدب الذي ينبغي لنا أن نقتبس منه وكأنّه قد أدركته الحيرة في ذلك ، ولمّا انتهى الحديث شكرت الإذاعة لصاحبه وإذا هو الدكتور طه حسين ، وهب الله له العافية ومدّ حياته . لست في حاجةٍ إلى الإعراب عن ألمي لمّا سمعت صوته المتهدّج ، ونحن نعلم أن صاحب هذا الصوت قد رزقه الله من المحاسن ما لم يرزقه إلاّ القليل من الناس .

في منتهى الحديث نصح الدكتور طه حسين للشباب المتأدبين أن يطالعوا كتب المتقدمين ، وأن يغرفوا من بلاغة بعضها ، وهذا هو السبيل القويم إلى حسن البيان .

لم يبعد الدكتور طه عن الصواب في نصيحته السديدة ، فان شباب هذا العصر إذا تمهّلوا في طائفةٍ من كتب المتقدّمين وأمعنوا في إدراك بلاغتها لم يذهبوا إلى ما ذهب إليه بعض الكتّاب من أن أدبنا القديم إنما هو أدب حذلقةٍ ، ولو ذاقوا يسيراً من بلاغة المتقدّمين لزهدوا في هذه الأساليب المستحدثة في عصرنا ، ولعلموا أن أدبنا في مواضي عصورنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يشتمل على كثير من السهولة والبساطة وغيرها من خصائص البلاغـــة ؛ وإذا تضمّن بعضه شيئاً من الحذلقة فان هذه الحذلقة قد ماتت بموت العصر الذي استفاضت فيه .

يميل كثير من الكتّاب والشعراء في هذه الأيام إلى الطرافة والجدّة في التعبير ، أي إلى الإتيان بأشياء يظنون أن غيرهم لم يأت بها لا في الماضي ولا في الحاضر ، وقد أصبحت هذه الطرافة حسنةً من الحسنات التي يفضّل بها بعض النقّاد شاعراً على شاعرٍ وكاتباً على كاتب ، فالشاعر كل الشاعر من أعرض عن قول الشعراء أمثال المتنبيء والبحتري وأبي تمّام وبشّار وغيرهم ، الشاعر كل الشاعر من لم يخالط تلك الطبقة ولم ينسحب على أذيال أصحابها ، الشاعر كل الشاعر من لا نرى على شعره أثراً من آثار كبار شعرائنا المتقدمين .

لا ريب في أن الشعراء أو الكتّاب الذين يخلقون لأنفسهم أسلوباً خاصاً بهم دون أن يقلّدوا شاعراً آخر أو كاتباً آخر لهم فضل غير قليل ، إلاّ أن التقليد قد يصير في بعض الأحوال إلى الإبداع ، فالمتنبيء قلّد في فاتحة أمره أبا تمّام ، ثم انفصل عنه بعد أن اختمر ونضج فكان له أسلوب خاصّ به جعله من الخالدين ، إلاّ أن المتنبيء لم يتمتع من مثل ما يتمتع منه من الخلود إلاّ بعد أن قرأ كثيراً من شعر من تقدّمه من الشعراء وملأ ذهنه من بلاغتهم وصورهم فاخترع أسلوباً خاصّاً به ، ولكنه أسلوب عربي صريح ولم يكن أسلوباً أعجمياً ، فهو لم يزهد في دواوين المتقدمين ولم يرَ أن أدبهم إنما هو أدب حذلقة ، فقد تمثّل في تلك الدواوين وأمعن فيها ، وانتفع بما يحسن الانتفاع به ، ثم ذهبَ في شعره مذهباً خاصاً به دون أن ينحرف عن روح اللغة وعبقريتها ، أمّا الذين أولعوا بالتجديد في عصرنا هذا فانهم يريدون أن يأتوا بأشياء جديدة ولو كانت هذه الأشياء مجرّدة من روح اللغة وعبقريتها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا بأس بأن نسمع ما قاله لنا إمام من أئمة الكتّاب في الغرب ، فقد قال لنا إن ثمرات القرائح التي لا قيمة لها إلاّ بطرافة أسلوبها وجدّة مبناها ، إن ثمرات القرائح التي لا قيمة لها إلاّ ببعض فنّها إنما تعتق بسرعةٍ ، فالأزياء الفنية تمضي وتدرج كما تمضي سائر الأزياء ، وما مثل العبارات التي تظهر عليها آثار التكلف والجدّة إلاّ كمثل الثياب التي تخرج من بين أيدي كبار الخيّاطين ، فان هذه الثياب لا تدوم إلا فصلاً واحداً . ولمّا انحطّ الفن في رومة في القديم كانت التماثيل مغطّاة رؤوسها بحسب آخر زي من الأزياء ، ثم ما لبثت هذه الأغطية أن أصبحت موضوع سخرية فاضطروا إلي تغييرها ، فوضعوا على التماثيل بدلاً منها أغطية من رخام ، فالأسلوب الظاهر عليه أثر الكلفة والتصنّع ينبغي له أن يغيّر كل سنة كما كانت تغيّر أغطية التماثيل الرومانية ، فان هذا الزمن الذي نعيش فيه والذي تمضي فيه الحياة بسرعةٍ لا تدوم فيه المذاهب الأدبيه إلاّ قليلاً ، ولا تدوم أحياناً إلاّ بضعة أشهر ، فالأسلوب البسيط هو الأسلوب الوحيد الذي خلق ليعيش سنين طويلة إن لم نقل عصوراً كاملة .

ولكن الصعوبة كلّها أن نهتدي إلى تعريف البساطة ، وإنها لصعوبة كبيرة .

إذا نظرنا في أمور الطبيعة الظاهرة فانّا لا نجد فيها شيئاً بسيطاً ، ولا يستطيع الفن أن يدّعي شيئاً من البساطة أكثر من الطبيعة نفسها ، ولكنّا على الرغم من ذلك إنّا نتفاهم تفاهماً حسناً إذا قلنا إن هذا الأسلوب بسيط وإن ذلك الأسلوب ليس ببسيط .

فاذا لم نجد أسلوباً بسيطاً فإنّا نجد على الأقل أساليب يخالها الإنسان بسيطة ، ولهذه الأساليب خلق الخلود والشباب ، فلم يبق لنا إلاّ أن نعرف كيف جاءت هذه الأساليب المظاهر التي نراها لها ، لا شك في أن الفضل في هذه المظاهر الرائعة لا يرجع إلى كونها أقلّ صوراً وألواناً من غيرها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن الفضل فيها يرجع إلى أنها تؤلف بنياناً قد رُصَّت أجزاؤه رصاً بحيث لا نستطيع أن نفصل بعضها عن بعض ، فالأسلوب الجيّد إنما مثله كمثل شعاع الشمس ، فهذا شعاع لا نرى إلاّ ضياءه وصفاءه ، فيبهرنا هذا الضياء الصافي البسيط في ظاهره ، ولكنّا إذا حلّلنا الشعاع وفككنا أجزاءه رأينا ألوانه السبعة التي اتحدت أتمّ اتحاد ، وتضامّت كل تضامّ ، حتى أُلّف منها الشعاع ورُكّب تركيباً محكماً ، وأن حسنه جاءه من كمال تناسق أجزائه ، ومن كمال اتحاد ألوانه ، فلا جزء في غير محله ، ولا قسم زائد فيه أو ناقص ، وهكذا الأمر في الأسلوب البسيط في الكتابة والشعر وفي كل فن من الفنون ، فهو مثله كمثل شعاع الشمس ، إنه مركّب ولكن تركيبه لا يظهر للعين ، فالبساطة الحسنة ، البساطة المرغوبة إن هي إلاّ أمر ظاهر لا غير ، وهي تتولّد من حسن نظام العبارة ومن الاقتصاد في أجزائها .

هذا يسير مما اقتبسته من كلام إمام من أئمة البلاغة في فرنسة ؛ وما أشرت إلى هذا الكلام إلاّ لمّا رأيت الإفراط في التجديد في عصرنا والغلوّ في مدح المجدّدين بحيث أصبحنا لا نفهم كثيراً من هذه الأساليب الجديدة ، ولست أبالي بالاعتراف بعجزي عن فهم كثيرٍ من هذه الأساليب فإني لأسمع قولهم : وضعوا اللمسات الأخيرة على الاستعدادات العسكرية ... ولا أفهم من هذا القول شيئاً .

لست أدري أي فضل لشاعرٍ لم يملأ ذهنه من بعض شعر المتقدمين ، أو لكاتب لا يعرف شيئاً من بلاغة الكبار من كتّابنا ، لست أدري أيّ فضل لأديب في هذا العصر لم ينتفع بمفردات وجملٍ في كتاب الله تعالى بلغت من السهولة المبالغ ، فقد نمرُّ مثلاً في سورة يوسف عليه السلام بقوله تعالى : (وأخاف أن يأكله الذئب) فهل تستوقفنا لفظة : يأكله ، وهل ننظر في سهولة هذه اللفظة ، فلو رجعنا إلى اللغة وفتشنا عن مرادف ليأكله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لوجدنا في اللغة ألفاظاً كثيرة تدلّ على هذا المعنى ولكنّ كتاب الله عزّ وجلّ لم ينتخب إلاّ أسهل هذه الألفاظ .

ومثل هذه اللفظة قوله تعالى في السورة نفسها : (أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ...) أفنجد في مفردات اللغة كلها لفظاً أسهل من يرتع ويلعب ؟ .

وكما تبهرنا سهولة مفردات القرآن فقد تبهرنا سهولة جمله ، ماذا نجد في سورة طه ، إنا نجد قوله تعالى : (ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) أفتحتوي العربية على تراكيب أسهل من هذه التراكيب ؟

والشواهد على هذه السهولة كثيرة في كتاب الله . وليست غايتي الكلام على هذه السهولة في هذا المقام وإنما الذي أرمي إليه إنما هو تأييد ما ذهب إليه إمام من أئمة البلاغة في الغرب من أن الأساليب الجديدة سرعان ما تفنى ولا يبقى إلاّ الفن السهل البسيط ، فليطمئن المجدّدون !

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net